العشق الممنوع

يُقال أنّ الموسيقى ميزان الوجود، وأنّ الحياة بلا موسيقى خطأ فادح، فهي تُفصح عن تلك الأشياء التي لا تستطيع الحديث عنها، ولا تقدر السكوت عليها. فدون الموسيقى يبدو لي العالم فارغًا فهي تُعطي روحًا للكون، وأجنحة للعقل وتحليقًا في الخيال، فهي تُعطيك المجال للهروب من الحياة من ناحية وأن تفهم الحياة بشكل أعمق من ناحية أُخرى، فهي نبضات حنونة تتسلل بكل خفّة لتدخل شغاف قلوبنا، فلا تمسّ شيئًا إلّا جعلته صافيًا نقيًا.

وقد أُثبت علميًا أنّ الموسيقى تُساعد في استذكار المشاعر، كما تُحفّز الخلايا العصبيّة في الدماغ وذلك من خلال الاستماع إلى لَحنٍ معيّن في فترات زمنيّة مختلفة، فكلما استمع الشخص إلى نغمة محددة تُصبح مألوفة لديه وتقوّي الخلايا العصبيّة.

ومن هُنا تبدأ مُشكلتي. فمنذ أيام تُلازم ذهني موسيقى وأغنية لا أنجح بالتحرر منها أو التخلّص من صداها. حاولت أن أفعل أكثر من شيء، ولكن بدون نجاح. قررت القراءة، رأيت حروفها بين أسطر كتابي. خرجت لممارسة رياضة المشي لعلّي أنساها، فإذا بي أسمعها تصدح من هاتف أحد الصبية. ذهبت لممارسة رياضة رفع الأثقال فلازمتني رافضةً مغادرتي.

أُف! ماذا تفعله بنا هذه الأغاني؟! هل هو اللحن السلس أم الكلمات البسيطة الهابطة؟ كلها "بَسبوس عاشق بِسّة وبدلعها بسبوسة"!! والمصيبة الأكبر من ذلك، مما زاد الطين بِلّة أنه قد انضمت إليها ملحقات جديدة وتوابع عميقة مثل: "دبدوب عاشق دبدوبة" و "وبطبوط عاشق بطبوطة".!

لا، لا اعتقد أنها الكلمات كذلك ليس اللحن. المشكلة هي نحن. هبطنا ولا زلنا نهبط. قبل أيام وصلنا خبر وفاة عملاق من عمالقة الفن والموسيقى وهو الفنان السوري القدير، صباح فخري، رحمه الله. لا أعتقد أنه توجد علاقة بين وفاة الفنان صباح فخري وبين إطلاق هذه الأغنية، إلّا سُخرية القدر، مع أنني لا أستبعد وجود علاقة خفيّة رمزيّة بين موته والهبوط الحاد بمستوى الأغاني العربية.

السؤال الذي يراودني: لماذا هبطنا إلى هذا المستوى؟ هل الهبوط الموسيقي له علاقة بالهبوط الفكري الحضاري؟!

قديمًا كان المجتمع هو صمام الأمان لحفظ الأخلاق والقيم من الضياع والاندثار وكانت أعرافه المتعارف عليها بين الناس بمثابة قانون موثّق يصعب اختراقه وكان المجتمع قديمًا متماسكًا إلى حدٍ بعيد، وكانت النخوة والشهامة والتسامح، وكانت المروءة والحياء أصلًا مُؤصّلًا بين الناس صغارهم وكبارهم. ورغم قسوة الحياة في ذلك الزمن إلّا أنه كان زمنًا جميلًا يعبّر عن الحياة الكريمة ويُعطي الإنسان مكانته، وكانت فيه أجواء السعادة والراحة، وكان للأشياء قيمة ومعنى رغم قلّتها وندرتها وبساطتها.

سيقول البعض أنّ مواقع التواصل هي التي أفسدت علينا لذّة الحياة ونكهتها وشتّتت شملنا وجعلتنا نُكِنُّ العداء لبعضنا وأفشت أسرارنا. ردّي على هؤلاء أنّ مواقع التواصل الاجتماعي لم تُفسد علينا حياتنا، إنّ المجتمع لم يتغير، وأنّ مُواكبة التطور والتقدم هو أساس النهضة والرقيّ لأي مجتمع. إنّ الذي تغيّر هو جوهر الانسان ومعدنه، في الزمن الماضي لم يكُن الناس أنبياء، ولكن كانوا أنقياء صادقين رغم قلّة العلم والمتعلمين.

اليوم كثُر المتعلمون، وزادت المساجد وانتشر الوعاظ وأصبح في كلّ مدينة جامعة وكلّية لكنها لم تُحدث تغييرًا ايجابيًا في المجتمع ولم تكُن لديها رسالة تحاول غرسها، وتهتم بالشكليات والمظاهر.

لولا الانحطاط الفكري والأخلاقي والاجتماعي، ولولا تغيّر الانسان ومعدنه لما ظهرت عندنا هذه النوعية من الأغاني، ولبقي "بسبوس بسًّا، وبسبوسة بِسّة" ولبقي العشق محصورًا على قيس وليلى وجميل وبثينة، ولما انتشرت في حينه أغنية "بحبك يا حمار" محطّمة أرقامًا قياسية في الاستماع والمبيعات.

على سيرة الحمير، أجلّكم الله، فإننا لن نختم حديثنا بدون طرفة:

قبل زمن غير بعيد كان متعهدو تنظيف الشوارع في بيروت يجمعون الزبالة وينقلونها على الدواب. وكان على الزبّال أن يقتني حمارًا وكانت أُجرته في النهار عشرة قروش، وأُجرة صاحبة خمسة قروش.

ويُحكى أنّ زبالًا مات حماره، فحزن عليه كثيرًا. فأشار عليه بعض العارفين أن يسلخ جلد الحمار ويصنع منه طبلًا ويبيعه بثلاثة أرباع ثمن الحمار. وهكذا فعل وشدَّ جلده طبلًا علّقه في رقبته، ومشى يقرع عليه في أزقّة المدينة لعله يجد من يشتريه.

فالتمّ صبيان الحي على صوت الطبل فوجد في المساء أنه جمع من قرع الطبل أكثر ممّا كان يقبضه من نقل الزبالة.

وحدث عرسٌ في المدينة فحمل طبله وجاء، فنقدوه عشرين قرشًا، ثم رجع رجلٌ من الحج، فمشى في موكبه وقبض خمسين قرشًا.

أخيرًا قرر أن يعتزل الزبّال "كار الزبالة"، ليتفرغ "للفن" وعرف قيمة نفسه وأسف لما فات من عمره، فطلّق زوجته، لينسى تعاسته، وتزوّج امرأة أُخرى تليق بمقامه.

وفي أحد الأيام أراد زبال آخر أن يحتفل بزواج ابنه فدعا زميله السابق الطبّال، فحضر بطبله وقام بالواجب. وطلب أجره خمس ليرات! فوجم الزبّال وقال: ألا تخاف الله؟! أنسيت أني أعيش من تعب حماري؟ ألا تعلم أنني أستطيع بخمس ليرات أن أشتري أحسن حمار بالمدينة؟ أجاب الطبّال: "تشتري أحسن حمار، لكن لا تصير ابن كار. (يقصد ان تصبح فنانًا)!

يُقال أنّ كثيرين من الزبّالين، بعد هذه الحادثة، باعوا حميرهم وشدّوا طبولًا وصاروا فنّانين "أبناء كار".

وقد نشأت أزمة الزبالة، في شوارع بيروت، مُذ صار عدد الزبّالين أقل من عدد الفنانين في المدينة.

دمتم بكل الخير

أ.أيمن جبارة